أدب الفقهاء

- ٧ -

الشعر الفلسفي :

الفلسفة بالاستعمال القديم لم تكن قاصرة على علميْ النفس والأخلاق كما هي اليوم ، بل كانت تشمل سائر المعارف الإنسانية من نظرية وعملية ، فتدخل فيها العلوم الطبيعية والرياضية والطب والأخلاق وعلم الجمال . وبهذا المعنى كان أرسطو يستعملها ، وكذلك علماء عصر النهضة الأولون في أوربا مثل فرنسيس بيكون وديكارت وأضرابها . وبالطبع فإن من نتكلم عنهم من الفلاسفة الأدباء العرب إنما كانوا من هذا القبيل ، ولكنا مع ذلك لا نقدم من شعرهم إلا ما كان له صلة وثيقة بالمباحث الفلسفية بمعناها المحدود كمشكلة الوجود والحقيقة الأزلية وما إلى ذلك . على أن المراد هو أن تكون هذه المباحث هي مُنطلَق التفكير الشعري لا الدخول في التفاصيل وعرض أنظار الفلاسفة في الموضـــوع ، فان ذلك يؤول إلى تأليف نظم تعليمي في الفلسفة كألفية ابن مالك في النحو وأرجوزة ابن سينا في الطب ، وما أبعد هذا عن اغراض الشعر والشعراء .

ولعل الشاعر العربي الوحيد الذي تناول في شعره مشكلة الوجود الإنساني والحقيقة العليا واختلاف المذاهب والآراء فيها وكان للتفكير الفلسفي ظل سابغ في معظم إنتاجه الشعرى هو أبو العلاء المعري ، وبالرغم من ذلك فانه لا يمكن أن يقال في شعره انه فلسفة خالصة ، ولكنه شعر ينطلق من محط أنظار الفلاسفة ومجالات تفكيرهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهكذا أصحابنا الفقهاء أو العلماء بلفظ أعم ، وإن كانوا فلاسفة حقيقيين ، لا يعرضون علينا في شعرهم إلا جانباً من النظر الفلسفي في ثوب من الخيال الشعري ليكون إنتاجهم عملاً أدبياً ناجحاً .

وأول من نذكره منهم الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا ، فان قصيدته العينية في النفس هي العَلَم المرفوع في هذا الباب ، ما زالت منذ قالها صاحبها تتناقلها الرواة ، وتكتب عليها الشروح ، وتُخَمَّس وتُشطَّر نظما ، وتترجم إلى اللغات الشرقية والأوربية ، وذلك كله من الأهمية التي لها لدى الأدباء والفلاسفة على السواء ، وجوهر الموضوع فيها هو اتصال النفس بالجسد وفراقها له ، وهي عَبْرَ ذلك تطرح التساؤلات الآتية : لأي شيء كان هذا الاتصال ؟ فان كان لغير تحصيل الكمال فهي حكمة طواها الخالق عن إدراك الإنسان ، وإن كان لتحصيل الكمال فلم يقع الفراق قبل حصوله ؟ وهذا طبعاً بأسلوب يتراوح بين التقرير والتخييل ، هو الذي أعطاها تلك الصفة الأدبيه التي جعلتها من عيون الشعر الفلسفي . وها هي ذي :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذاتُ تعزُّز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كُرْه إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أَلِفت وما سكنت فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامع تهمي ولما تقلع
وتظل ساجعةً على الدِّمَن التي ... درست بتكرار الرياح الأربع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيف وصدها ... قفصٌ عن الأوج الفسيح المَرْبَع
حتى إذا قرُب المسير من الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت محالفة لكل مخلّف ... عنها حليفِ التشرب غير مشيع
سجعت وقد كُشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلمُ يرفع كل من لم يُرفع
فلأي شيء أُهبطت من شاهق ... عال إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمة ... طُويت على الفذ اللبيب الأروع
وهبوطها إن كان ضربة لازبٍ ... لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين نخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بغير المطلَع
فكأنها برقٌ تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

أثبتنا هذه القصيدة بكاملها لأننا كلما أردنا الاجتزاء منها بقسم وجدنا أنّ روعتها لا تكمل إلا بالقسم الآخر ، فهي وحدة مترابطة بإشارتها ورموزها لا يصح تجزيئها . ونحب أن ينتبه القارئ إلى جمال التعبير عن النفس بالورقاء وهي الحمامة ووصفها بالتعزز والتمنع وكونها محجوبة سافرة ، وإلفها لخراب الجسم مع تطلعها للمحل الذي هبطت منه وذكرها لعهودها بذلك الحمى المنيع ، إلى آخر ما وصفها به . وما أحسن ما وقعَ قولهُ في مدح العلم : « والعلم يرفع كل من لم يرفع » بعد ذكر المحنة التي مرت على النفس واكتسبت بها من المعرفة ما رفعها إلى الأوج . وأخيراً يتطرق الشيخ إلى مذهب التناسخ في البيت الذي قبل الآخر فينفيه بتلك العبارة القاطعة مؤكداً مفهوم جواب الشرط المذكور قبله ، من أنه لا كمال في الحياة الفانية ولا رجوع إليها لتحصيله كما يقول أصحاب ذلك المذهب ، فلله در ابن سينا ما أجلّه فيلسوفاً وأديباً ومؤمناً صادقاً ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وثاني قصيدة بعد العينية ألمت بالمقاصد الفلسفية وإن لم تكن لها شهرتها هي قصيدة ابن الشِّبْل البغدادي وهو كما في عيون الأنباء : « أبو علي الحسين ابن يوسف بن شبل (١) ، مولده ، ومنشأه ببغداد . وكان حكيماً فيلسوفاً ومتكلماً فاضلاً وأديباً بارعاً وشاعراً مجيدا . وكانت وفاته ببغداد سنة أربع وسبعين وأربعمائة . وهذه القصيدة من جيّد شعره ، وهي تدل على قوة اطلاع في العلوم الحِكْمية والأسرار الإلهّية . وبعضُ الناس ينسبها إلى ابن سينا وليست له » . وهذا هو في مطلعها الرائع يلقي السؤال الذي لا جواب عليه :

بربك أيها الفلك المدار أقصدٌ ذا المسير أم اضطرار
مَدارُك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تُدار

إنها مشكلة الزمن والمكان ، أو الفضاء ، التي حيرت العقول منذ القدم وما زالت بدون حل حتى في عصرنا هذا ، عصر الصواريخ والأقمار الصناعية التي تغزو الفضاء يومياً بالعلم الذي جعل من هذا الفضاء ومباحثه مادة اختصاص يعكف عليها مئات العلماء في الشرق والغرب ، فلا ينتهون إلا إلى أبعاد سحيقة إنما هي مظهر من عظمة الكون وهندسته العجيبة ، فأما عِلّتُه وسِرُّه تكوينه فأمر محجّب لا سبيل إلى معرفته والاطلاع عليه ، وذلك ما صاغه ابنُ الشبل في هذا المطلع بلباقة حِكْمية وبراعة أدبية لا نجدها إلا عند أمثاله من العلماء الأدباء .

ويتابع صاحبنا أسئلته الحائرة عن مصير الإنسان بعد مفارقة الحياة ، وعن المجرّة ونهرها العجيب والشمس والنجوم والشهب الضاربة فيقول :

---

(١) في الوافي للصفدي : محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشبل . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعندك تُرفَع الأرواح أم هل ... مع الأجساد يدركها البوار
ومَوْجٌ ذي(١) المجرّة أم فِرِنْدٌ ... على لُجَج الدروع له أُوار
وفيك الشمس رافعة شُعاعاً ... بأجنحةٍ قَوادِمُها قِصار
وطوق في النجوم من الليالي ... هلالُك أم يَدٌ فيها سوار
وشُهْب ذي الخواطِف أم ذُبال ... عليها المَرْخُ يُقدَح والعَفار
وترصيعٌ نجومك أم حَباب ... تؤلف بينه اللجج الغِزار
تُمَد رقومُها ليلاً وتُطوَى ... نهاراً مثل ما طُوِي الإزار
فكم بصقالها صديءُ(٢) البرايا ... وما يصدا(٢) لها أبداً غِرار

ويطول بنا التعرض لما تناولته القصيدة بعد هذا من تقلب الزمن بأهله وعكس مرادهم، وخطيئة الانسان الأول وما جرته من شقاء على الانسانية، وإن كان لا يصح غض الطرف عن قولها في وصف القيامة، وفيه ملامح من وصف القرآن لذلك اليوم الهائل ونصه :

إذا التّكْوير غالَ الشمسَ عنا ... وغال كواكبَ الليل انتشار
وبُدّلنا بهذي الأرض أرضاً ... وطوّح بالسموات انفطار
وأذهلت المراضع عن بنيها ... لحيرتها وعُطّلت العِشار
وسُيِّرت الجبالُ فكُنَّ كُثْباً ... مَهيلاتٍ وسُجِّرت البحار
فأين ثباتُ ذي الألباب منا ... وأين مع الرجوع لنا اصطبار

وهو وصف بليغ يدل على مقدرة ابن الشبل البيانية وعلى إيمانه العميق، برغم ما أبداه من حيرة وأثاره من إشكال ازاء بعض المأثورات. ثم هو ينهي قصيدته العظيمة بقوله في عظمة الكون والاعتبار بقدرة الخالق :

(١) في عيون الأنباء الذى ننقل عنه : ذا
(٢) في عيون الأنباء صدي بدون همز، ويصدى بياء ألف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

فما لِسُمُوِّ ما أعلى انتهاء ولا لسُمُوكٍ ما أرسى قرار
ولكن كل ذا التهويل فيه لِذي الألباب وعظ وازدجار

ولابن الشبل أيضاً قصيدة في رثاء أخيه أحمد ينبغي أن تكون تَوْأم قصيدة أبي العلاء المعري المشهورة في رثاء أحد فقهاء الحنفية بما طرقه فيها من أفكار في فلسفة الموت والحياة مع جودة التعبير وبلاغة الأداء ومنها قوله :

صحةُ المرء للسّقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
بالذي نغتذي نموت ونحيي أقتلُ الداء للنفوس الدواء
ما لقينا من غدر دنيا فلا كا نت ولا كان أخذُها والعطاء
راجع جودها عليها فَمَهْما يَهبِ الصبحُ يستردّ المساء
ليت شعري حُلْماً تمرُّ بنا الأيامُ أم ليس تُعقَل الأشياء
من فساد يجْنيه للعالَم الكو نُ فما للنفوس منه اتقاء
قبّح الله لذة لأذانا نالَها الأمهاتُ والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقدَ فإيجادُنا علينا بلاء

وهذه أبيات مشهورة في معانٍ فلسفية مختلفة ، فمنها للشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل :

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلها وردّدت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كفّ حائر على ذَقَنٍ أو قارعٍ (١) سنّ نادم

وللفخر الرازي :

نِهايةُ أقدام العقول عِقالُ وأكثرُ سعي العالَمين ضلال
وأرواحنا في غُفْلة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال

---

(١) لعلها : أو قارعاً ... (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادُوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شُرفاتِها رجالٌ فزالوا والجبال جبال

ولابن أبي الحديد :

فيك يا أغلوطة الفكر غدا الفكر عليلا
أنت حيرتَ ذوي اللب وبلبلتَ العقولا
كلما أقبل فكري منك شبراً فرَّ ميلا

ولِبَلْمظفَّر بن معرّف في الرد على الطبائعيين :

وقالوا الطبيعةُ مَبْدا الكيان فياليت شعريَ ما ذي الطبيعة ؟
أقادرةٌ طبعت نفسَها على ذلك أم ليس بالمستطيعة ؟

ولأبي سليمان المنطقي ، ويحتوي على نزعة وجودية مع الإقرار بخلود الحقيقة العليا :

لذةُ العيش في بهيميَّة اللذة لا ما يقوله الفلسفي
حكم كأس المنون أن يتساوى في حساها النبيي والألمعي
ويحلُّ البليد تحت ثرى الأر ض كما حلَّ تحتها اللوذعي
أصبحا رِمَّةً تزايلَ عنها فصلُها الجوهريُّ والعَرَضي
وتلاشى كيانُها الحيوانيُّ وأَوْدَى تَمْيِيزُها المَنطِقي
فاسأل الأرض عنهما إن أزال الشكَّ والمِرْيةَ الجوابُ الخَفِي
بطلت تلكم الصفاتُ جميعاً ومُحال أن يبطُل الأَزَلي

هذه نماذج من شعر أصحابنا الفقهاء العلماء في موضوع الفلسفة وما يتصل بها من المباحث العقلية ، هي من جهة مادة عزيزة في الأدب العربي قلما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نعثر على نظير لها فيما أنتجه غيرهم من شعر يتجافى كثيراً عن منازع الفكر ومُشتجَر الآراء في مطالب النفس وحقيقة الوجود ، وذلك طبعاً باستثناء فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري . ومن جهة أخرى هي أعظم دليل على قوة ملكتهم الشعرية وعارضتهم الأدبية ، إذ أخضعوا تلك الأنظار والمذاهب المختلفة لحكمهم وعبروا عنها بعبارات دالة وكلام واضح لم تضق عنه قوالبُ النظم ولا عيّت به أساليبُ البيان . وذلك غاية ما يطلب من أئمة الأدب وحملة الأقلام .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net